

أساطير وحكايات

العصفور الأزرق واليتيم

دار القلم
بيروت - لبنان

أساطير وحكايات

العصفور الأزرق واليتيم

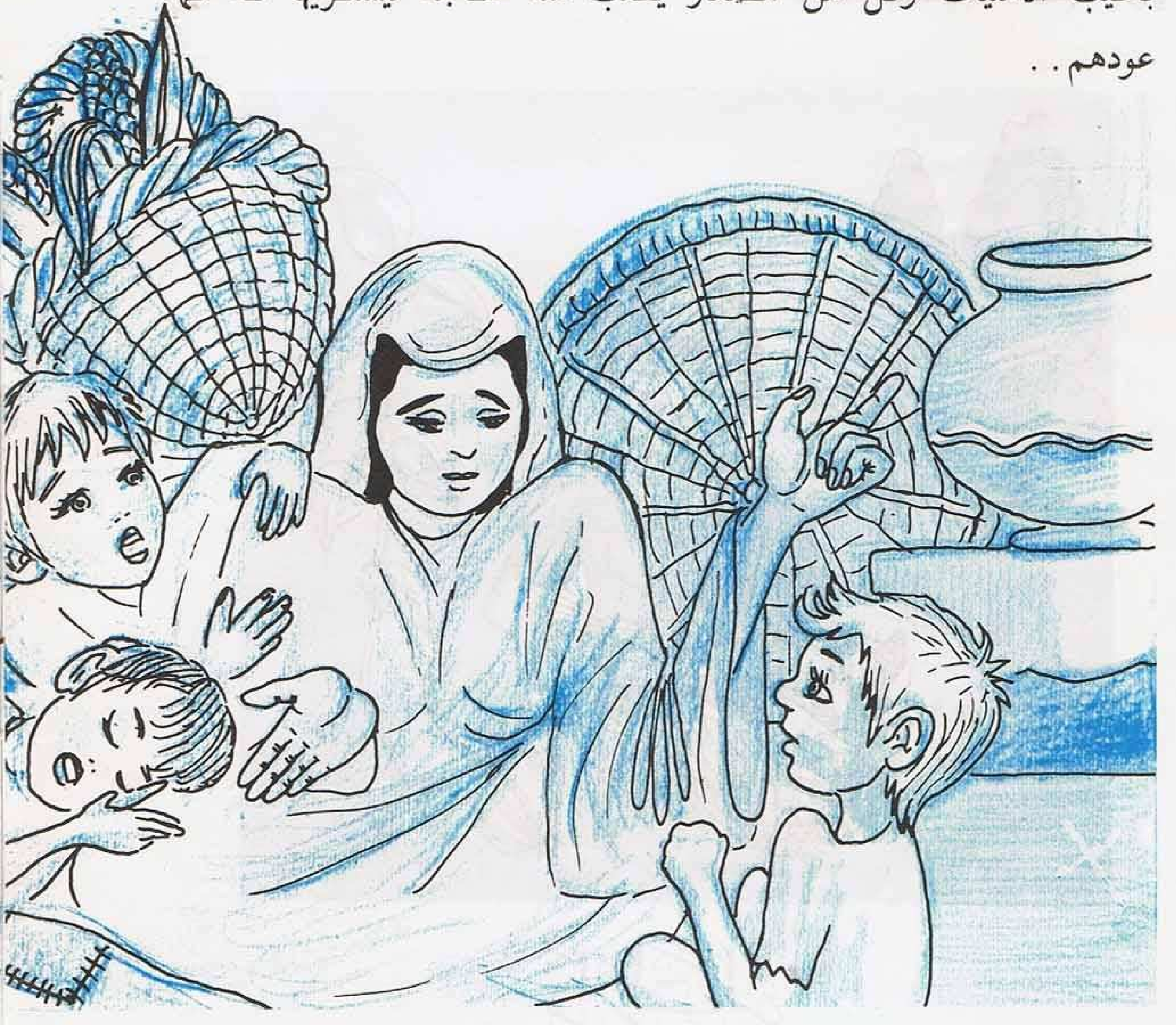
تأليف : محمد عبد الحميد الطرزي



دار القلم
بيروت - لبنان

جلست الأم الحزينة بين صغارها تحنو عليهم وتدخل الى قلوبهم الصغيرة بعض السعادة بما تقصه عليهم من قصص تلهيهم عن تناول الطعام الذي نفذ ولم يبق منه إلا سلة من الذرة هي كل ما تبقى من مخلفات والدهم المسكين الذي وافاه القدر ولم يرحم صغاره المساكين . .

كانوا يسكنون بيتا شيده من أخشاب الغابة التي يعمل في قطع الأشجار منها وكان عمله الذي يتقوت منه هو وزوجته وأطفاله . . حتى حلت الكارثة دون سابق انذار فقد فارقهم يومذاك مودعا من الجميع بأطيب الأمنيات وكل من الصغار يطلب منه حاجة ليشتريها له كما عودهم . .



كانت السعادة ترفرف على الأسرة والخير وفير والعمل دائم لا خوف من انقطاعه يوما.. ولكن ما كان يخطر على بال ولا خاطر أن يحم القضاء على تلك الصورة فيحرم الأسرة عائلها ما بين عشية وضحاها..

ومر عام على وفاة الرجل والأم المسكينة الحزينة تطعم أولادها من بقايا مؤن كان والدهم قد كدسها بمنزله احتسابا لتغيرات قد تحدث فالزمن قلب لا يبقى على حال ومن سره زمن ساءته أزمان..

وكان ولدها الأكبر الذي بلغ الثانية عشر منذ أيام هو أملها في المستقبل وذخرها للأيام فاشقائه صغار لا زالوا في حاجة لمن يرعاهم ويحنو عليهم..



وبالرغم من الحاجة والحرمان علمت ولدها مكارم الأخلاق والصلاة. فحفظ القرآن الكريم وأخذ في وحدته يفكر في معانيه السامية وما يحويه من عبّر..

كان جالسا كعادته خارج المنزل يتأمل من ملك الله ويسبح بفضله طالبا رضاه ورحمته عندما سمع صوت أمه تنادي

- ربيع.. أين أنت يا ولدي..

هب على الفور من مكانه وأسرع اليها وقال

- نعم يا أماه..

قالت والأسى على وجهها باد ظاهر

- يا ربيع لقد نفذ ما لدينا من دقيق وبعد أيام يهّل على الدنيا العيد.. هلا حملت سلة الذرة وذهبت بها الى الطحان ليطحنها فأصنع لكم خبزا تأكلوه حتى يأتينا الفرج من عند الله.؟



أطرق ربيع متأثرا لحديث أمه وقال

ـ غدا أن شاء الله.. سأذهب مبكرا الى الطحان لأطحن الذرة..

ظهر على وجهها التأثر وقالت

ـ يا ولدي المسكين.. لا زال عودك يافعا والحمل عليك ثقيل والطريق الى الطاحون طويل..

إبتسم ليزيل همها وقال

ـ لقد إشتد عودي وقويت عضلاتي ولم أعد طفلا يا أمي.. كوني مطمئنة ولا تحملي همي..

ودخل لينام وهو حزين النفس يغلبه التأثر للحال التي أصبحوا عليها بعد وفاة والده وأخذ يفكر في طريقة يقدم بها بعض العون لأمه وأخوته.. ولكن ماذا يفعل.؟ انه لا يتقن عملا بعد وإن كانت له دراية بعمل والده في قطع الأشجار وتهذيبها حتى تبقى سوقها خالية وبامكانه ان يقطع شجرة كل يومين اذا ما عمل بكد ونشاط كما أنه يعرف الطريق الى تاجر الأخشاب الذي اعتاد شراء الأخشاب من والده فلم لا يحاول فيسد حاجة الدار ويأّمن ولو جانباً من مستلزمات أمه وأخوته...

وأتخذ هذا القرار قبل نومه على مشقته اذ لم يجد أمامه حل سواه ثم قرأ القليل من قصار الصور ونام حتى يتمكن من الإستيقاظ مبكرا فيصلي الفجر ويذهب في طريقه..

ما أن غفلت عينه وراح في النوم حتى أيقظه صوت نقرات خفيفة على زجاج النافذة.. لم يعرها في أول الأمر اهتماما فلا شك أن الثلوج بدأت تتساقط وهي تضرب الزجاج فتحدث هذا الصوت..

وعاد الى نومه ولكن الصوت تكرر وكانت الرياح الباردة في الخارج

تزمجر بعنف والبرد قارص تجمد له الأطراف فنظر ناحية النافذة وهو يرتعد من شدة البرد فالغطاء خفيف لا يجلب الدفء الكافي لجسده المقرور وتأكد أن الدقات تأتي منتظمة وبالحاح فألقى بالغطاء وترك فراشه وسار الى النافذة وتطلع فشاهد عصفورا بلله المطر من شدة البرد وينقر الزجاج بمنقاره وكأنه يطلب العون . .



أسرع وفتح النافذة فلفحته ريح باردة اصطكت لها أسنانـه وحمل العصفور بحنان ثم أغلق النافذة وأسرع يجففه بمنشفته ثم دسه تحت الغطاء وهو يقول بصوت حنون

ـ أيها المسكين.. كيف تركت عشك في هذه الليلة الليلاء.؟ لا شك أن الرياح اقتلعته والقت بك في الفضاء.. مسكين أنت أيها العصفور لقد عانيت في ليلتك هذه ما لا طاقة للبشر على تحمله.

كان العصفور وقد أحس الدف ينظر اليه بعينيه الصغيرتين نظرات تحمل الشكر والعرفان بالجميل فتأثر ربيع وقال

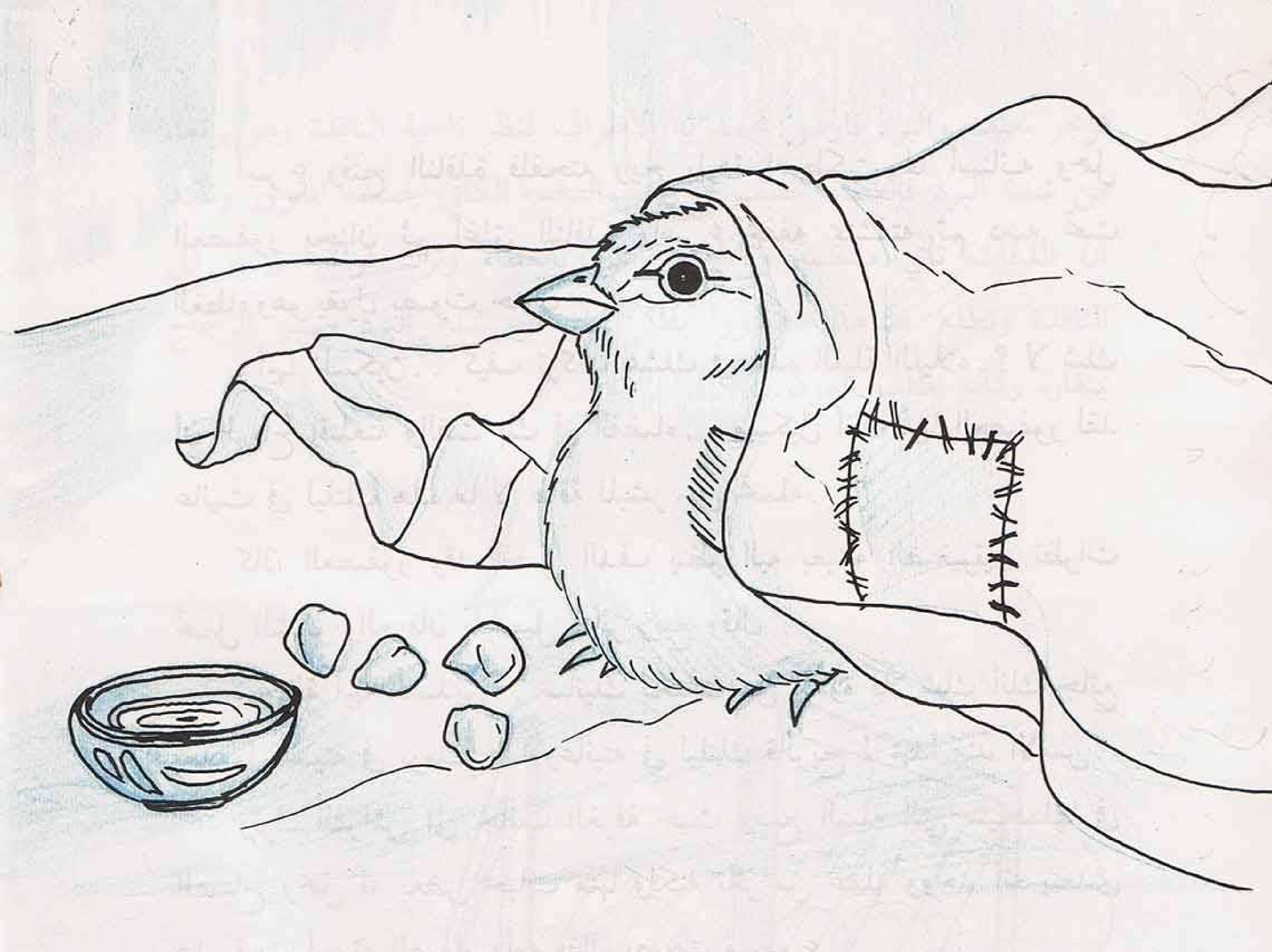
ـ لحظة أيها الصديق.. سآتيك بحبات من الذرة فلا شك أنك جائع بعد ما قاسيته في يومك هذا وعانيته في ليلتك فالريح لم تهدأ منذ الأمس.

وترك الفراش الى جانب الغرفة حيث وضع السلة التي سيحملها في الصباح وحمل له بعض حبات منها ولكنه تأثر من عمله ووجد أنه يتعدى على قوت أخوته الصغار وأمه فقال بصوت مسموع

ـ أنها حبات قليلة ومع ذلك ستكون من نصيبي وسأتنازل لأخوتي عما يعادلها وأكثر..

وكما توقع ربيع كان العصفور جائعا فانفض على الحب يلتهمه بسرعة حتى أتى عليه فأتاه باناء فيه قليل من الماء فشرب وهدأ ودب فيه النشاط فزحف الى جوار ربيع وقفز لينام على صدره وإن ظل مفتوح العينين لا يغمض له جفن حتى بعد أن غلب النوم ربيع ونام..

* * *



تعالى صياح الديك وكان ذلك يعني قرب بزوغ الفجر فنهض ربيع بهدوء حتى لا يزعج العصفور وتوضأ وصلى ثم اقتطع بضع حبات من الذرة وضعها للعصفور الذي تظاهر بالنوم وكذلك وضع له اناء الماء وقال له بحنان

ـ عندما تستيقظ كل واشرب ولا تغادر المكان في هذا الجو البارد.. انتظر حتى تطلع الشمس ويشيع الدفء وبعدها إرحل إن شئت..

وحمل السلة الثقيلة على رأسه وتسلل خارجا من المنزل بهدوء حتى لا يزعج أمه المكدوره وأخوته الصغار من نومهم..

* * *



اتخذ ربيع طريقه يسير مترنحا تحت وطأة الثقل الذي يحمله على رأسه وأخذ يسلي نفسه بالتفكير بأمور عدة. . في هذا العصفور المسكين. . ترى ماذا كان ينتظره لو لم يسرع اليه ويحمله من البرد والصقيع.؟ وحمد الله اذ ألهمه أن يلوذ به ويطرق نافذته.. وتذكر حبات الذرة التي اختلسها لاطعامه وقال مناجيا ربه

- ربي اغفر لي خطيئتي فأخوتي الصغار في حاجة لكل حبة مددت لها يدي من قوتهم ولكن هـذا العصفور المسكـين أليس بدوره روح من صنعك.؟ من هداه السبيل الى نافذتي ليدقها أليس هو أنت يا عظيم.؟ سامحني يا ربي وأعاهدك أن أعوض ما أكله من قوتي مع ما سأحتفظ له به من هذه الذرة. .

وعاد الى التفكير في العصفور من جديد. ترى الا يزال نائما.؟ترى هل هو سليم معاف لم يصب بمرض بعد ما عاناه في ليلتـه من برد وصقيع؟. ولا يدري ربيع لم اتجه تفكيره فجأة هذا الاتجاه اذ قال لنفسه بصوت مسموع

- من يدري ربما كان يتيما مثلي فقد أباه وألقت به المقادير يتخبط بحثا عن الطعام والمأوى.؟ إطمئن اذن سيكون حالك مثل حالي وعندما أبدأ العمل سأشتري لك قفصا جميلا تجعل منه مسكنك ولن أدخر وسعا لاسعادك بأذن الله.

وأصابه التعب بعد أن قطع جانبا كبيرا من الطريق ورأى أن الوقت لا زال مبكرا ولن يفيده لـو نال قسـطا من الراحة قبل أن يـواصل طريقه. كاد ربيع ينصرف بسلة الغلال حتى إنتفض العصفور فإذا به شاب جميل الصورة يرتدي من الثياب أفخرها.. أخرج من جيب معطفه



كيسا ثقيلا مليئا بالدنانير الذهبية وفتح الباب وغادر الحجرة وهو يسير على أطراف أصابعه حتى وصل الى الحجرة التي تنام فيها الأم وصغارها فتقدم حتى أقترب من الفراش وأخذ يتمتم ببضع كلمات ثم قال بصوت مسموع

- أيتها المرأة الصالحة. . هل تسمعين. ؟

أجابته الأم وهي مستغرقة في نومها

- نعم أسمع صوتك ولكني لا أراك. .

أجابها

- في القريب ستريني كثيرا أما الآن فاليك بهذا الكيس فهو هدية مني لك ولربيع وأخوته. .

سألته بدهشة

- تقول كيس. ؟ ماذا بداخله. ؟ مال. ؟

أجابها وقد أسعده ادخال الفرح الى قلبها الحزين

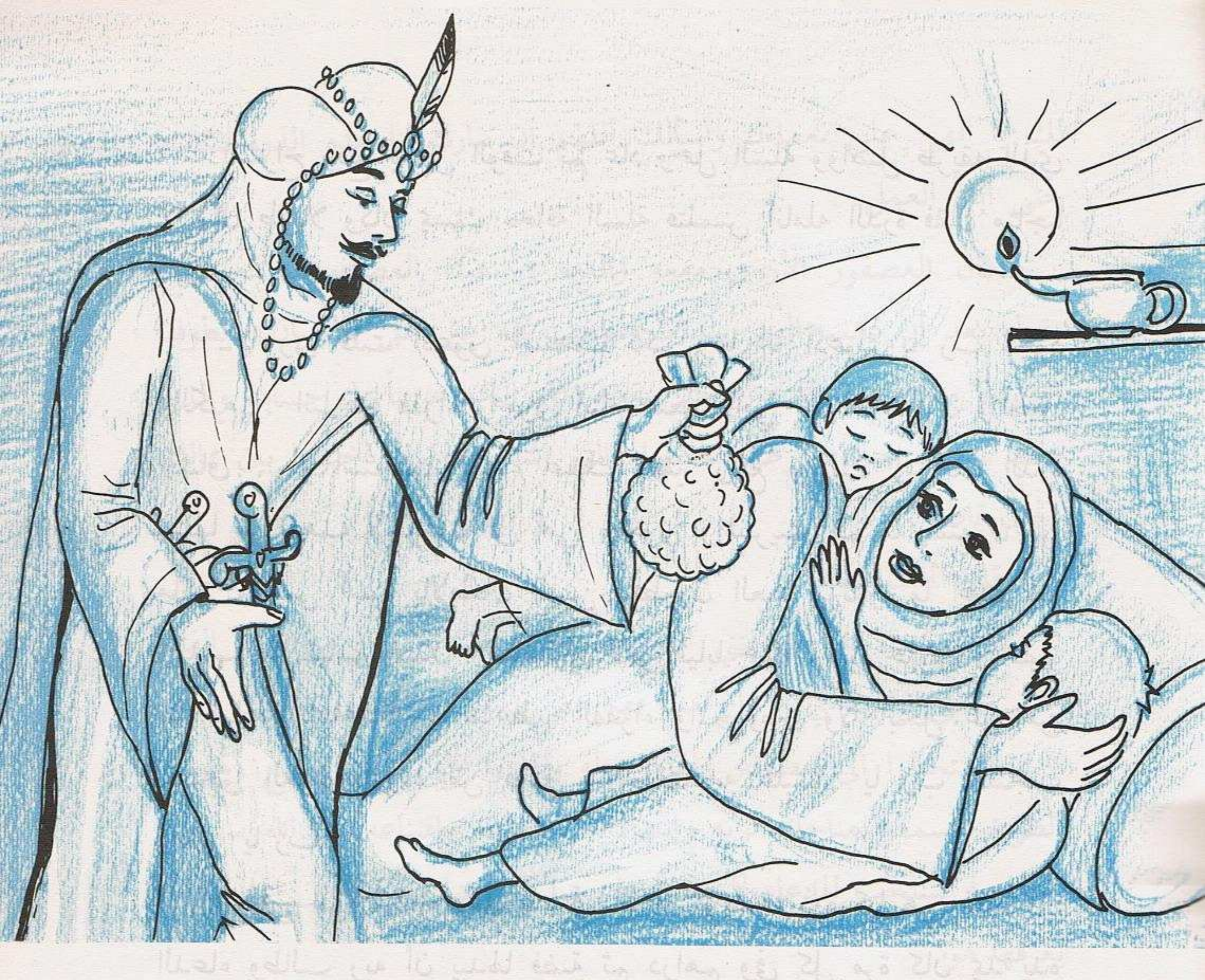
- نعم دنانير ذهبية ولن يكون آخر هداياي لكم. . فإستمري في حسن تربيتك لأولادك فالله يرعى الصالحين المؤمنين الصابرين ولا تغفلهم رحمته وهو أرحم الراحمين. .

سألته بدهشة

- ومن أنت يا ولدي. ؟ لا شك أنك ملاك كريم فكيف نعبر لك عن شكرنا ونحن قوم كما ترى فقراء مساكين؟.

أجابها باسما

- كلما ذكرتني قولي اللهم وفقني وأولادي لصنع الخير واذا ما عاد ربيع سيحمل لك هدية من أبي وأمي. .



سألته ودهشتها تتزايد

ـ ومن أباك ومن هي أمك حتى أدعوا لهما ولك بعد كل صلاة . ؟

اغرورقت عينا الشاب بدموع التأثر لطيبة المرأة الطاهرة

وقال بحنان :

ـ يكفي أن ترددي قوله تعالى «ومن عمل صالحا لنفسه» وقوله سبحانه «وأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث» صدق الله العظيم . .

ومرة أخرى تمتم ببضع كلمات ثم انسحب خارجا بعد أن ترك الكيس الى جوارها لتجده عند يقظتها . .

استراح ربيع بعض الوقت ثم عاد وحمل السلة وواصل طريقه الذي لا زال طويلا وكان يمسك بحافة السلة فتلمس أنامله الذرة فقال مناجيا ربه

ـ يا ربي قلت ادعوني أستجب لكم وها أنا أدعوك يا رب الجود والكرم.. اننا قوم فقراء واخوتي أيتام صغار وأمي أضناها الحزن والعمل الشاق.. لو استجبت لدعاء عبدك الفقير ربيع وبدلت لي هذه الذرة بمثلها من ذهب لأسرعت الى أمي وَأخوتي وإشتريت لهم ما يشتهون من مأكل وملبس أسوة بالأطفال الذين ينتظرون العيد ليرتدوا ما أعده لهم والديهم من ثياب جميلة.. سأشتري لأمي ثيابا جميلة وبقرة حلوب وأحضر لها صانعة تساعدها.. سأعطي الفقراء والمحرومين ولا أبخل على من يستحق العون فأزوده من فضل ما جدت به علينا. يا رب استجب دعائي يا رب..

وانتهى من الدعاء ومد يده في السلة فوجدها ذرة كما هي فعاد الى الدعاء وطالب ربه أن يبدلها فضة ثم دراهم وفي كل مرة كان يمد يده فيجدها ذرة كما هي..

قال بضراعة

ـ يا الهي.. لا شك أنني لا أستحق ما طمعت فيه فهلا بدلت لي الذرة حنطة فيأكل أخوتي خبزا أبيضا في أيام العيد القادمة..

ومد يده وقبض حفنة من الحب وتطلع اليها ووجدها ذرة على حالها لم تتغير..

قال بإيمان

ـ لك في ذلك حكم ولو عرف ابن آدم الغيب لاختار الواقع فحمدا

لك يا الهي على نعماءك وأسألك أللهم أن تبارك لنا هذه الذرة لتكفينا حتى أبدأ العمل . .

كان العصفور الأزرق ومعه والديه في هيئة العصافير يسمعون ما يقول بعد أن ذهب اليهما ولدهما وأبلغهما بأنه عثر على الانسان العطوف الذي لا يبخل على المحتاج حتى بقوته وكان الخبر غريباً على مسامع والديه ملك وملكة جبال الأرض الخضراء التي إشتهرت بوفرة خيرها بين ممالك الجان قاطبة :

قال الملك لولده

ـ إن كنت قد أصدقتني القول سمحت لك بالزواج من هذه الفتاة الفقيرة التي ترغب في الزواج منها فهيا معي وأثبت لي صدق ما قلت . .

واستحالوا الى عصافير زرقاء جميلة وطاروا حتى لحقوا بربيع وهو في الطريق وسمعوا مناجاته لربه وإبتهالاته ثم إيمانه واقتناعه بأن الله سبحانه وتعالى لم يستجب للدعاء لا بخلا على عبد من عباده الصالحين انما لحكمة يعرفها هو . .

قال الملك باعجاب

ـ حقا ما أعمق إيمانه بالرغم من حداثته وفقره الظاهر . .

قالت الملكة

ـ انه لا يذكر نفسه انما سأل الله أن يعطيه من أجل أمه وأخوته والفقراء والمحتاجين . . هنيئا لأمه مثل هذا الفتى الصالح المؤمن . .

قال الأمير بفرح

ـ هل اقتنعت يا أبي بأن أبن آدم قوم صالحين يعبدون الله مخلصين له الدين . .

أجابه والده

ـ ومع ذلك ولكي يطمئن قلبي سأجري له اختبارا ان اجتازه بنجاح فزت بعروسك وفاز وأمه واخوته بنعمة من الرزق أرسلها لهم الله سبحانه وما كنت الا منفذا لأمره.

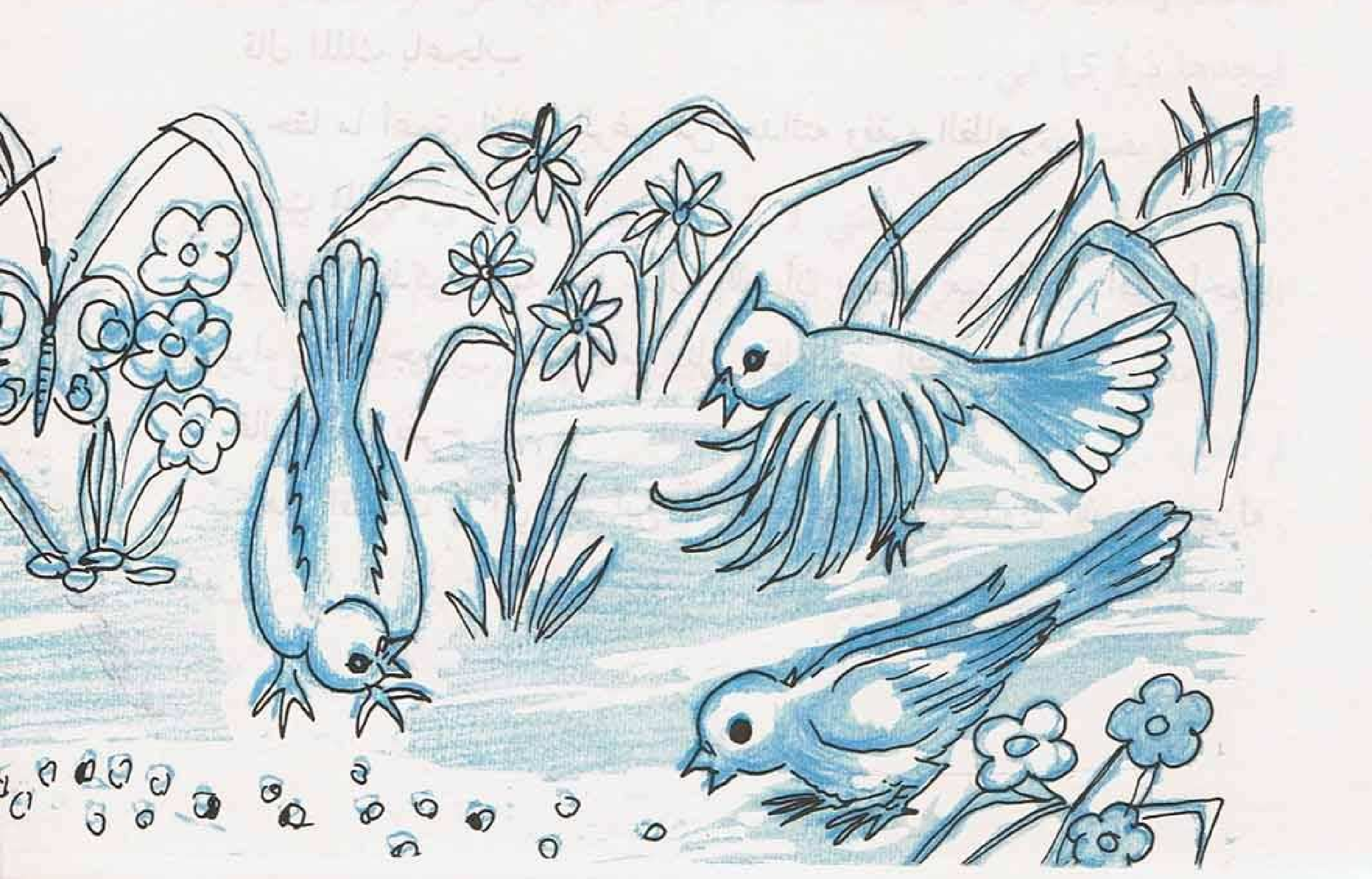
سأله الأمير

ـ وما هو هذا الأختبار يا أبي..

أجابه الملك..

ـ ستتعثر قدمه الآن وتسقط منه الذرة وتتبعثر في الطريق فنحط عليها ونأكل منها وسوف نسمع ما يقول ونرى كيف يتصرف.

وفجأة تعثرت قدم ربيع فسقطت السلة وتبعثرت الذرة على الأرض فأصابه الرعب ووضع السلة جانبا وهو يقول





- لا حول ولا قوة الا بالله . .

ومن فوره أخذ يجمع الذرة ويعيدها الى السلة بصبر وهو راض قانع معتبرا أن ما حدث أمرا يختبر به الخالق صبر عبده على المكاره والرزايا . .

وسمع رفرفة طير وشاهد ثلاثة من العصافير الزرقاء تهبط على الذرة وتلتقط منها بسرعة ونهم فكف عن جمع الحب حتى لا يزعجها

وقال

- كلي هنيئا حتى تشبعي فلا شك انك من ذوي قرباه . . ترى ماذا يفعل الآن . ؟

قالت الملكة بتأثر

- يا له من فتى غريب . .

قال الملك

- الآن حان وقت الامتحان . . ابقيا حيث أنتما وأرقبا ما سيدور . .

وطار الملك وحط خلف سياج من الشجر وتصوّر بصورة فلاح وخرج الى الطريق وسار حتى وصل الى مكان ربيع فتوقف ونظر اليه والى الذرة المبعثرة والعصفورين وهما يأكلان منها بسرعة ونهم . .

قال الفلاح

- يا لك من فتى لا يعرف البر بأهله وذويه . . لا شك أنك كنت تحملها الى الطاحون لتطحنها ولكن بعبثك أسقطتها وبدلا من جمعها جلست تتأمل الطيور وهي تلتهمها

تطلع اليه ربيع بنظرة مؤمنة وقال بأدب

ـ جانبك الصواب يا سيدي وظلمتني.. أنا لم أعبث ولم أهمل ولكن شاء الله لي أن أسقط الذرة أتدري لماذا.؟

سأله الفلاح متهكما

ـ لا أعلم ومنك نستفيد.؟

أجابه ربيع

ـ لا تسخر مني لصغر سني يا سيدي.. أترى هذه العصافير التي تلتقط الحب..

قال الفلاح

ـ بالطبع أراها..

أجابه ربيع

ان لها رزقا من هذه الذرة وكان عليها أن تناله فسبحان موزع الأرزاق ولم ينس أحد..

انهالت دموع الفلاح وأسرع الى ربيع يقبله بحنان وقال

ـ إذهب أيها الفتى هنيت بما عطيت..

وتابع الملك المتنكر ليعود مرة أخرى الى هيئة الطير وينزل الى جوار زوجته وإبنه..

سأله الأمير بلهفة

ـ لعلك اقتنعت يا أبي العظيم..

أجابه والده

ـ ربيع ستذهب الى بيته محملا بكل ما تشتهي الأنفس واحمل له من الذهب ما يحقق به أحلامه للفقراء والمحتاجين فهو والله مؤمن أمين..

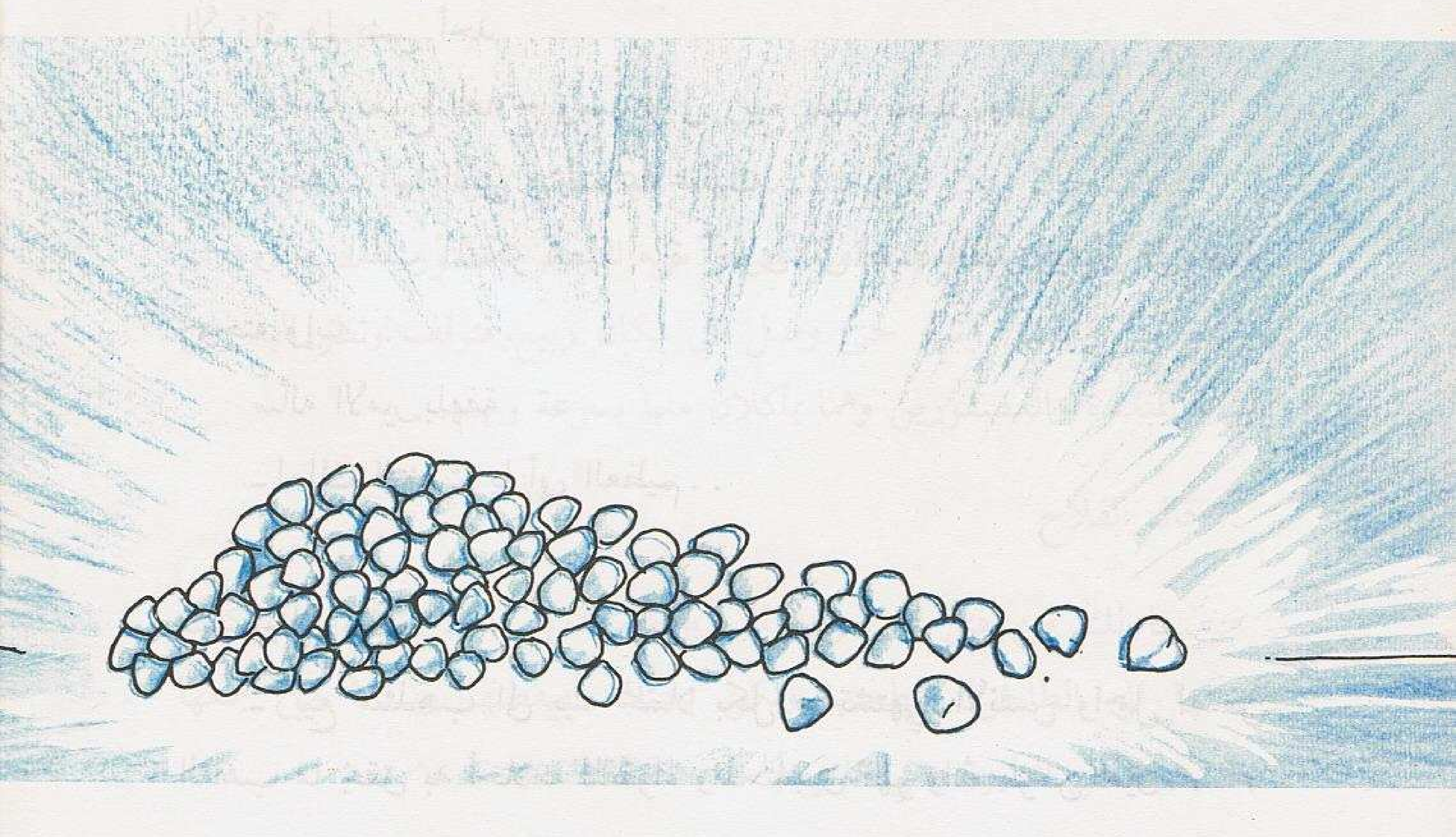
وانتهى ربيع من جمع الغلال بعد أن طارت العصافير وهي سعيدة وقال

ـ حمدا لله فقد أسكت جوعكم والله أسأل أن يسكت جوع كل فقير ومحتاج وحمل السلة ووضعها على رأسه فأحس بها ثقيلة وكان عهده بها أخف وزنا . . حاول أن يسير فتعذر عليه السير فاستبدت به الدهشة وحمل السلة وأنزلها الى الأرض وما كاد يتطلع الى الذرة حتى انبهرت أنفاسه من شدة الدهشة والفرح وأخذ يعبث في حبات الذرة التي استحالت الى ذهب ابريز . .

رفع رأسه الى السماء وقال

ـ اللهم حمدا وشكرا فما خاب من سألك ولا فاز من عصاك . .

تمت



صدر من أساطير وحكايات

- مالك الحزين والبلبل المسكين
- زارع الشر يحصده
- الراعي العجوز والملكة نفوس
- الأصيل والخسيس
- معروف وشقيقه متلوف
- مرآة الساحرة
- تاجر الكلام وابنة الإمام
- بئر الأماني
- العفريت الأعمى
- نصيحة الديك
- بدور والكلب الأعرج
- غندور والطائر المسحور
- قاطش وباطش وظاطش
- العفريت باطش والسلطان قادش
- الشحاذ والعفريت ظاطش
- زهران والمارد الغضبان
- يا ليل يا عين
- ملك الجان والعراف
- وهمان الجن صديق الانسان
- العصفور الأزرق واليتيم

تصدر عن دار القلم - بيروت - لبنان - ص . ب: ٣٨٧٤ - تلكس: ٤٢٢٨٩ - برقيا: قلمطاب - هاتف: ٢٧٢٠٢٠

الثمن: ٦ ليرات لبنانية أو ما يعادلها